التأطير والمراقبة التربوية في مدارسنا الابتدائية

الموضوع الذى سنتبادل فيه الرأى خلال هذه الجلسة (1)، موضوع يهمكم بالدرجة الاولى ، أنتم القائمون على الاشراف البيداغوجى فى تعليمنا الابتدائى . انه موضوع يتناول بالضبط المهمة التى اخترتموها لانفسكم : مهمة تأطير المعلمين والمراقبة التربوية . انها مهمة صعبة وشاقة ، ما فى ذلك شك ، ويزيد من صعوبتها ان نظامنا التعليمى يعانى من نقص كبير فى الاطر ، ومن انخفاض مريع فى المستوى ، مستوى التلاميذ ومستوى المعلمين . أضف الى ذلك ما نشتكي منه جميعا ، من عدم استقرار السياسة التعليمية فى بلادنا ، وعدم الوضوح الكافى فى الاهداف التربوية التى نتوخاها منها ، مع نقص كبير فى التجهيز والوسائل ، الى غير ذلك من جوانب النقص التى يعانى منها التعليم فى المغرب ، والتى تشكل فى مجموعها أبرز مظاهر التعليم فى البلدان المتخلفة، البلدان التي رزحت ردحا من الزمن تحت وطأة الاستعمار ، بعدما عانت من عهود التراجع والانحطاط .

ودون أن اثقل عليكم باستعراض هذه الجوانب ، جوانب الضعف والنقص المتعددة ، سأركز تدخلى هذا على الجانب الذى تتحملون فيه بعض المسؤولية ، جانب « التفتيش » أو المراقبة التربوية . ولكى تكون مناقشتنا مثمرة ، أرى أنه من المناسب البدء بتحليل بعض الجوانب الاساسية فى المهمة التى تقومون بها ، بالكيفية التى تمارسونها ، وفى ظل

1) — محاضرة القيت على مجموعة من المفتشين المساعدين . ونشرت بالمحرر يوم 75.6.10

الظروف التي تعملون فيها . انه تحليل هو الى النقد الذاتي اقرب . ذلك لانه بدون التحليل ، وبـدون النقد الذاتي ، لن يكون بامكاننـا طرح الموضوع طرحا جديا ، ولن يتاتى لنا بالتالي التماس معالم الطريق الذي من شانه ان يساعدنا على القيام بمهمتنا بالوجه الاحسن حتى في ظل الظروف الصعبة التي نعرف تفاصيلها جميعا .

ولعله من نافلة القول ، التاكيد مرة اخرى على ان المشكل الاساسي والخطير الذي تعاني منه معظم البلدان ، حتى المتقدمة منها ، في ميدان التربية والتعليم ، هو النقص المتزايد في الاطر التعليمية ، نقص في الكم والعدد ، ونقص في المستوى والتكوين .

ان اسباب هذا النقص كثيرة ومعروفة :

هناك اولا : تزايد عدد الاطفال الذين تستقبلهم المدارس نتيجة تعميم التعليم واجباريته .

وهناك ثانيا : انصراف معظم المتخرجين من المدارس والجامعات عن امتهان التعليم ، لان هذه المهنة لا توفر لصاحبها نفس الاجرة ونفس الامكانيات المادية والمعنوية التي توفرها له مجالات العمل الاخرى ، سواء في القطاع العمومي او في القطاع الخاص .

واذا كان هذان العاملان يتكاملان ويتسببان في عدم كفاية الاطر التعليمية ، كما وكيفا ، فان العامل الثاني هو اعظم اثرا ، لان مفعوله يمتد الى العامل الاول نفسه ، فالعلاقة بين زيادة التلاميذ والنقصان في الاطر علاقة نسبية ، بالاضافة الى انـه العامل المسؤول عن انخفاض المستوى والنقص في التكوين .

ذلك لانه لما كانت سوق مهنة التعليم سوقا بائرة ، تقبل كل وافد وطالب ، فان روادها ، في الغالب ، هم اولئك الذين يعجزون ، لهذا السبب او ذاك ، عن الحصول على عمل في قطاع آخر غير التعليم . وهكذا نجد انفسنا امام ظاهرة ، تؤكدها الاحصائيات في مختلف البلدان ، المتقدمة منها والمتخلفة ، وهي ان جل الذين يلتحقون بمهنة التعليم هم ، في الغالب ، اولئك الذين تعترضهم صعوبات تحول دون متابعة دراستهم، والحصول على مستوى من المعرفة والتخصص يمكنهم من ولوج القطاعات

الاخرى . والغالب فى هذه الصعوبات انها من النوع الذى يرجع الى الحاجة والفقر . فعندما يجد الشاب نفسه ، فى المرحلة الثانوية ، غير قادر على مواصلة الدراسة ، بسبب فقر عائلتـــه وعجزها عن النفقة عليه ، أو بسبب حاجتها اليه كشاب أصبح فى وسعـــه ان يعمل وينال اجرا أو مرتبا ، عندما يجد الشاب نفسه فى هذه الحالة ، يكون المنفذ الوحيد الذى يتراى له هو الانخراط فى سلك التعليم . ان التعليم ، هو وحده ، فى هذه الحالة ، الذى يفتح امامه العمل وكسب القوت . هذا ما يفسر كون الاغلبية الساحقة من رجال التعليم هم من العائلات الفقيرة والمتوسطة ، وهذا ما يفسر ايضا انتماء معظم رجال التعليم الى الحركات الاعتراضية التى تطالب بالتغيير والاصلاح .

واذا نظرنا الآن ، على ضوء هذه الحقيقة ، الى مستوى رجال التعليم ببلادنا ، امكننا ان نفهم اسباب انخفاض المستوى المعرفى والمهنى بين صفوفهم ، وامكننا ايضا تقدير هـــذا المستوى تقديرا حقيقيا . ان الشاب الذى يلتحق بمهنة التعليم لاول مرة ، هو فى الغالب تلميذ فى المدرسة الثانوية ، لا يتعدى مستواه الثقافى الشهادة الثانوية ، أى اربع سنوات دراسية بعد الشهادة الابتدائية ، يتلقى خلالها ثقافا مبعثرة وغير منظمة ، بل ومتنافرة ، من المعلومات فى المواد الدراسية المعروفة : اللغه ، الحساب ، التاريخ والجغرافية ، التربية الوطنية والاسلامية .

هذا الشاب ينتمى كما قلنا الى الطبقات الفقيرة أو المتوسطة . ان وضعيته الطبقية هذه هى التى تحكمت ، الى حد كبير ، فى « اختياره » مهنة التعليم . ذلك ، لانه بصفته من عائلة فقيرة أو متوسطة ، والفقر والحاجة مرادفان دوما للجهل ، لابد ان يكون قد عانى فى طفولته ، وخلال دراسته الابتدائية والثانوية ، صعوبات كثيرة : فعائلته الفقيرة الجاهلة لا تستطيع أن توفر له الظروف التى تساعده ماديا ومعنويا فى دراسته : فعلاوة على نقص التغذية ، وضيق المنزل ، وكثرة الاخوة ، والمشاكل الزوجية التى يتسبب فيها الفقر ، هناك جهل الاب والام ، وعدم مراقبتهما لابنهما فى البيت ، ثم هناك الوسط الثقافى المنحدر الذى تعيش فيه هذه الاسرة ... كل هذه العوامل وامثالها يجعلان مـــن طفلنا هذا ، تلميذا متوسطا فى احسن الاحوال . فهو لا ينتقل من قسم الى آخر الا بصعوبة، وفى الغالب يكرر السنة مرة او مرتين ، ويكون مهددا بالطـــرد كل لحظة.

ان هذا التلميذ المتوسط ، او دون المتوسط ، يجد نفسه عندما يشب مضطرا بدافع الحاجة والعجز الى مغادرة المدرسه والبحث عن العمل. وهنا لا يجد ، كما قلنا سوى التعليم مهنة تقبله . وفي هذه الحالة ، اما ان يلقى به ، دفعة واحدة ، في القسم ليعلم الاطفال ، مع مطالبته بتحضير الكفاءة المهنية ، واما ان يتقدم الى مدرسة المعلمين حيث سيتلقى دروسا في الثقافه العامة مماثله لتلك التى تلقاها في الاقسام الثانوية ، بالاضافة الى نتف من المعلومات العامه ، القديمة غالبا ، في مادة التربية وعلم النفس .

لنترك المعلم الذى التحق مباشرة بالقسم ، فهو مجرد تلميذ « يعلم » التلاميذ ، ولنتتبع خطوات هذا الشاب الذى التحق بمدرسة المعلمين . فما نوع التكوين الذى يتلقاه هناك ؟ يجب ان نكون صرحاء وأن لا نتردد في القول : أن ما يتلقاه هناك ، في الظروف الراهنة ، هزيل للغاية . أن البضاعة الثقافية والمهنية التى تروجها مدارس المعلمين عندنا، حاليا ، بضاعة مهلهلة هزيلة . انها عبارة عن نتف من المعلومات ، القديمة في معظم الاحوال ، يعتمد فيها التلقين والحفظ اعتمادا اساسيا . أما التدريبات المهنية فهي لا تعدو ان تكون مجرد حضور مع بعض المعلمين في أقسامهم اثناء القاء الدرس ، حضورا يعتمد هو الآخر على « الالتقاط » والتلقين . ومن هؤلاء المعلمون ؟ انهم اولئك الذين تم تكوينهم بالامس بنفس الطريقة التى يكون بها هو اليوم ، مع ما استفادوه من خبرتهم الخاصة .

ومهما يكن ، فصاحبنا يغادر مدرسة المعلمين دون أن يكون قد استفاد كبير فائدة في الثقافة العامة ، اما في ميدان التربية وعلم النفس ، فكل ما يحتفظ به في ذهنه ، هو جملة اشباح من الافكار والنظريات التى لا يعرف لاختلافها معنى ، ولا لمضمونها مغزى ، نظريات وافكار تنتمى الى القرن التاسع عشر وما قبله . اما الجانب العملى التطبيقى ، فالغالب أنه لا يتعدى مستوى التقليد ، تقليد معلميه واساتذته ، واولئك الذين حضر معهم دروسهم « النموذجية » .

النتيجة من هذا كله هي أن التكوين عندنا هو مجرد تكرار لمعلومات قديمة متنافرة ، بأسلوب تلقيني يعتمد الحفظ والتقليد . قدماء المعلمين الذين أصبحوا مفتشين أو اساتذة في مدارس المعلمين يلقنون تلامذتهم

المعلمين الجدد نفس المعلومات التي تلقوها هم انفسهم على علاتها ، وبنفس الطريقة التلقينية : بضاعة واحدة تنتقل من السابقين الى اللاحقين بمضمونها ، وطريقتها ، بل ربما بشكل اكثر نقصانا وبترا . النتيجة الملموسة من كل هذا هو ضعف مستوى المعلمين ، ضعف مستوى التكوين، وهو ضعف يؤدى بطبيعة الحال الي ضعف مستوى تلامذتهم ، وبالتالى الى ضعف مستوى معلمي المستقبل انه الضعف المتنامى المطرد .

لقد تخرج صاحبنا الآن من مدرسة المعلمين ، وها هو ذا يلتحق بمقر عمله . فماذا سيجد فى هذا المقر ؟ انه سيجد مدرسة ابتدائية تعانى من فراغ ثقافى ، فكرى وتربوى ، قاتل : المدير مشغول بالاوراق ، بالفصول المتناوبة ، بالحضور والغياب ، بملء البيانات والاستمارات التى تمطره بها الادارة المركزية والنيابات الاقليمية فى كل وقت وحين ، ومشغول ايضا بنظافة المدرسة وتوزيع تعويضات هذه النظافة ، وباشياء اخرى قد تكون لها علاقة بالمدرسة او لا تكون . والى جانب المدير هناك المعلمون ، وهؤلاء يعملون فى عزلة عن بعضهم بعضا ، لا تجمع بينهم الا ساحة المدرسة اثناء الاستراحة حيث يتركز حديثهم فى الغالب حول همومهم ومشاكلهم الازلية ، كالترقية والدرجة والتعويضات ، وما شاكل ذلك . وهنا سيطلع هذا المعلم الجديد على المأساة الكبرى التى لا تشكل مأساته هو الا قطرة فيها . ان المشاكل المادية ، مشاكل التأجير والترقيات والتعويضات التي اخذ يتعرف عليها ، لا تخصه وحده ، وهو الحديث العهد ، بل ان اقدم المعلمين ربما كان اكثرهم مشاكل من هذا النوع .

من حين لآخر ، وفى الغالب مرة واحدة كل سنة أو سنتين ، يدق عليه باب القسم شخص ثالث . انه هذه المرة ليس المدير ولا المعلم المجاور ، ولا التلميذ الذى يطوف المدرسة باحثا عن الطباشير أو المسحة او الخارطة ، انه المفتش . فماذا سيكون شعوره ازاء هذا الوافد الجديد .. المخيف ؟ اغلب الظن أن شعوره فى هذه الحالة لا يختلف عن شعور التاجر الذى لا يضبط شكليات الحسابات ، عندما يفاجئه مفتش المالية ؟

يدق المفتش باب القسم ، أو لا يدق . يفتح الباب والمعلم يرتعد.. يطلع على اوراق التحضير والتوزيع السنوى والتوزيع الشهرى ..

يلتفت الى الصور التي قد تكون على الجدران ، يلقى نظرة على التسبورة، وعلى الطاولات ، والتلاميذ . يجلس فى مقعد ، يستمع الى الدرس ، يسجل ملاحظات ، أو يكتب التقرير مباشرة . ثم تنتهي الحصة ، ويغادر المفتش القسم بعد أن عاش المعلم المسكين ساعة من أطوال ساعاته ، عانى فيها من أنواع الارتباك والاضطراب ما جعله يتصرف اثناء الدرس بانفعال ودون ضبط .. وقد يزيد فى حدة الموقف عدم استجابة التلاميذ لدرس ، او فضول بعضهم الذى لم يتردد فى القاء اسئلة « غير مناسبة » .. المهم هو ان المفتش غادر القسم أو المدرسة ، ساكتا أو بعد ملاحظات وانتقادات .. وبعد أيام ، او أسابيع ، يأتى تقرير المفتش .. التقرير الذى يحكى ما رآه هذا الاخير ، وما سمعه وما سجله .. يأخذه المعلم على عجل ، وعيناه تبحثان عن النقطة .. حتى اذا تبينها ، وقرأها مرارا ، القى نظرة على ما هو مكتوب من ملاحظات « وتوجيهات » مكرورة معروفـــة .

هذه صورة مؤسفة ، صورة كاريكاتورية ، بعض الشيء ، ولكنها صورة الواقع الفعلي ، ان لم يكن مائة فى المائة ، فسبعون فى المائة او يزيد . والنتيجة الوحيدة التى يمكن استخلاصها من هذه الصورة ، هى ان الجانب التربوى فى تعليمنا شكلى كله :

ـــ التكوين فى مدارس المعلمين تكوين اسمى ، مغرق هو الاخر فى الشكلية .

ـــ اما التأطير والمراقبة التربوية ، اى ما نسميه بالتفتيش ، فلعله اكثر الجوانب شكلية وسطحية فى تعليمنا كله . اكثر المفتشين عنـــدنـــا يهتمون بالمظاهر والشكليات فقط ، بالاوراق ، بالصور ، بجداول الحصص بالتوزيعات .. والملاحظات و « التوجيهات » تأتى شكلية كذلك : لمـــاذا فعلت كذا ولم تفعل كذا ؟ لماذا قلت كذا .. التلاميذ يرفعون اصابعهم مع ضجيج .. الاجابات جماعية .. أوراق التحضير قديمة .. غير ملونة .. السطور غير مستقيمة .. الخط غير واضح .. الى آخر القائمـــة المعروفة . وهناك جوانب اخرى كثيرة لا حاجة للاشارة اليها هنا ، نأهل مكة أدرى بشعابها .

* * *

أيها الزملاء . .

لعلني أثقلت عليكم ، بل ربما عممت الحكم على الكثيرين الذيـن يبذلون جهدا كبيرا فى أداء مهمتهم والرفع من مستوى العمل التربوى الذى يمارسونه ، ولكن عذرى هنا هو أننى قصدت الى ابداء العيوب وتجسيمها حتى تكون على بينة من أمرنـا .

نعم ان النقص الذى يمكن أن يلاحظ فيكم هو نقص ورثتموه أنتـم ايضا ممن قبلكم ، وتعمل الوضعية الحالية المزرية التى تعملون فيها على تعميقه وتقويته . أنتم أيضا مؤطرون داخل نفس الاطار ، تعـانـون كمفتشين ما عانيتم منه كمعلمين واساتذة ، بل ما عاينتم منه يوم كنتم تلامذة فى القسـم . أنا أعرف كثيرا من المشاكل التى تعانـون منها ، وأعرف الاعتبار الهزيل الذى يعطى لكم .. ولاشك أن فيكم من تعرض للاهانات من الرؤساء بدون سبب ، ولاشك أن هناك رؤساء عليكم قد لا تقرون كفاءتهم ، بل لاشك أن كثيرين منكم قد أهين فى كرامته من لدن أبسط موظف فى الادارة المركزية . هذا كله صحيح .. فالاطار واحد ، والامور مرتبطة بعضها ببعض ، ونفس المقدمات تؤدى الى نفس النتائج اذا كانت الظروف واحدة .

هذا كله أعرفه وألمسه ، وقد عشته معكم لفتـرة من الوقت . ولكن مع ذلك هناك قسم هام من المسؤولية يقع على عاتقكم . أنتـم مطالبون بتغيير وضعيتكم ، والاصلاح يجب أن يبدأ منكم . كل الناس فى هذه البلاد يطالبون بالاصلاح ، اصلاح التعليم والرفع مـن مستواه . وأنتم تعرفون أنه لايمكن تحقيق أى اصلاح فى مجال التربية والتعليم الا باصلاح المعلم والرفع من مستواه ، وهذه مهمتكم أنتم . ان الاصـلاح يجب أن يبدأ منكم ، فهو يتوقف عليكم ، أنتم المكونين والمراقبين التربويين.

ولا أريد أن أسرد عليكم قائمة من المقترحات التى يجب العمل بها للرفع من مستوى التـأطير و المراقبة التربوية . فـأنـا أومن أن العمل التربوى هو قبل كل شيء ، عمل يمارس ليتحسن ويرتفع مستواه بالممارسة الواعية والتجربة الشخصية المراقبة . ليـست هناك قاعدة ذهبية يجب أن يطبقها كل منكم تطبيقا حرفيا ، بل هناك فقط مبادىء عامة ، وملاحظات خصوصية يمكن أن تساعد على اغناء تجاربكم وتوجيه نشاطكم نحـو

البحث والابتكار ، بدل التقوقع فى اسلوب روتينى ممل لا ينتج غير الركود والجمـــود .

لعل اول ما يجب أن يتغير فيكم هو الطريقة التى يعامل بها بعضكم المعلمين الذين تتولون الاشراف عليهم . كان قاسم امين يقول : الرجل الشرقى حاكم فى بيته ، محكوم خارج منزله ، مشيرا بذلك الى شخصية السيد والعبد التى يتقمصها الرجل الشرقى ، حينما يعامل زوجته فى البيت كسيد فيضطهدها ، ليعامل هو خارج البيت كعبد يتلقى الاضطهاد ساكتا راضيا . واخشى أن يكون كثيرون منكم حكاما يضطهدون المعلمين داخل الاقسام ، ومحكومين يتلقون الاضطهاد خارجها ساكتين راضين . يجب أن تكونوا أسيادا تعاملون من تحت مراقبتكم وارشادكم بوصفهم اسيادا ايضا . نحن نطلب من المعلم ان يطبق مبادىء التربيه الجديده ، فيعامل تلامذته كأطفال ، يحترم شخصياتهم ويساعدهـــا على التفتـــح والنمو ، ويغرس فيهم حب الاستقلال والاعتماد على النفس ، والميل الى التجديد والابتكار ... فلماذا لا نطبق هذه المبادىء نفسها فى معاملتنا مع المعلم نفسه . يجب أن نعامله كمرب ، كشخص يخوض التجربة يوميا ونشجعه على البحث والابتكار وأخذ زمام المبادرة فى كل شىء ، يجـــب أن نتبادل الراى معه كند وزميل .. واكثر من ذلك يجب ان نهتم بمشاكله الشخصية ، والعامة ، ونحاول مساعدته والتخفيف عنه . وباختصار يجب أن يكون سلوكنا معه نموذجا فلسلوك الذى نريد أن يسلكه هو مع تلامذته .

ان المعلم فى بلادنا جندى مجهول ، يحارب فى عدة واجهات بدون سلاح ، فيجب أن نقدر ظروفه ، ونعمل على مســـاعدته وتشجيعـــه والرفع من معنويته . أن الاهتمام بالشكليات عند التفتيش والمراقبـــة لن يؤدى الا الى تعليم شكلى. ليس المهم ما يقدمه لنا المعلم من اوراق وليس المهم ما نقدمه له نحن من ملاحظات ومآخذ .. المهم هو ان نجعل من كل درس نستمع اليه تجربة تربوية نتناقش مع المعلم الذى يقودها فى اسلوب القيادة ، وفى النتائج التى يجب استخلاصها منها ، وذلـــك بروح الزمالة والاخوة والتعاون . ذلك لان التجربة هى طريق الحقيقة ، والحقيقة ليست ملكا لاحد ، بل هى نتيجة المحاولة والبحث والتجربـــة والممـــارســـة .

واذا تحقق هذا السلوك من جانب المفتش ، تغيرت نظرة المعلم

الى التفتيش ، فلا يعود ينظر اليه كوسيلة للمراقبة السلبية التى تتصيد الاخطاء والهفوات ، وتحاسب المعلم محاسبة القاضى للمذنب . انه سيشعر حينئذ ان المفتش عون له ومساعد ، فيرحب به ، ويواظب على الاتصال به ، انه لمن المؤسف حقا ان يقتصر عمل بعض المفتشين على الاتصال بالمعلمين ، كلا على حدة ، مرة فى السنة ، أو فى السنتين فماذا سيستفيده المعلم من هذه الزيارة ، وكيف يجوز للمفتش ان يحكم على عمله طول السنة من خلال حضوره معه مدة ساعة واحدة ! لابد اذن من ربط الصلة بكيفية دائمة ومستمرة مع المعلمين الذين تتولون الاشراف عليهم ، تتبعون نشاطهم واعمالهم ، وتشجعونهم على البحث والابتكار فى اساليب العمل والتدريس .

على أن الاتصال بينكم وبين المعلمين سيكون قليل الفائدة ، صعب التحقيق ، اذا لم يعملوا على تنظيم سلسلة متواصلة ومخططة من اللقاءات والندوات والمحاضرات . يجب ان نحمل المعلمين على الاستفادة من بعضهم بعضا ، يحضرون دروسا نموذجية يلقيها كل منهم دوريا ، ويشاركون فى ندوات اسبوعية حول مواضيع فى الثقافة العامة و فى التربية وعلم النفس ، الى جانب ندوات ومحاضرات دورية تنظم لهم بكيفية منتظمة على صعيد القريه او المدينة او النيابة الاقليمية . يجب ان نحرص على أن نجعل من كل مدرسة ، او مجموعة مدارس الحى او القرية ، منتدى للمناقشات الثقافية والتربوية التى تهدف الى اعادة التكوين واستكماله ، والرفع من المستوى الثقافى والمهنى وتحسينه .

هناك جانب ثالث لابد من الاشارة اليه . فمن المعروف تربويا أن المعلم يؤثر فى تلامذته بسلوكه وشخصيته وطريقة عمله ، اكثر مما يؤثر فيهم بالمعلومات التى يلقنها لهم او بالنصائح الكلامية التى يوجهها لهم . انه بالنسبة اليهم النموذج والمثال . فيجب ، اذن ، أن نحمل المعلم على أن يراجع نفسه دوما ، وان يضع هذا النموذج الذى يمثله موضوع نقد ومراقبة دائمين . وهو لن يفعل ذلك عن طريق الوعظ والارشاد ، ولا بواسطة الزجر والعقاب . كلا ، انه لن يجعل عمله موضوع مراجعة ونقد ، ولن يحرص على تطوير اساليبه وتحسين طريقته فى اداء مهمته ، الا فى اطار من النقاش الهادف ، والتعاون المشترك ، والتكوين المستمر. ان اللقاءات والندوات التى اشرنا اليها هى خير وسيلة تحمل المعلم على مراجعة نفسه ، والاهتمام بطريقة عمله ، والتطلع دوما الى ما هو

احسن وافضل . والقدوة فى هذا المجال يقدمها له المفتش . فعلى هذا الاخير اذن أن يحرص على مراجعة نفسه ، ويعمل على تكوين ذاته ، والرفع من مستواه الثقافي والمهنى . فاذا لم يكن المفتش واسع الاطلاع حريصا على تتبع ما جد فى عالم التربية من ابحاث ، كان نموذجا مغلقا، جامدا راكدا ، لا يجد ما يسعفه به المعلم الا التكبر الكاذب ، والتعسف فى استعمال السلطة ، وتلك وسائل يلجأ اليها عادة لتعويض النقص وستر الجهل .

ان عالم المعرفة ، اليوم ، فى تقدم مستمر ، والمشاكل التطبيقية تطرح نفسها بالحاح فى كل ميدان . وعلينا ان نكون صرحاء مع انفسنا فنعترف ان جل الثقافة التربوية والسيكولوجية التى نتوفر عليها ، ما هى الا نتف من آراء ونظريات اصبحت قديمة ، ليس لها من قيمة الا ما قد يكون للمعلومات القديمة من قيمة تاريخية . ان علم نفس الطفل مثلا لم يعد كما كان قبل عبارة عن آراء واجتهادات ووجهات نظر ، مستوحاة من الملاحظة العلمية وسيكولوجية الراشد . بل انه الان علم قائم بنفسه له أصول وقواعد خاصة به . لقد حقق علم النفس التكوينى فى العقود الاخيرة طفرة واسعة ، واصبحت نتائجه ، نتائج علميه قائمة على التجربة والبحث والاستقصاء . ان هناك قوانين للنمو العقلى للطفل كشف عنها هذا العلم ، لابد من مراعاتها والسير على هداها ، والا كان العمل التربوى عملا عشوائيا لا علميا .

على أن الاطلاع على النظريات والنتائج العلمية الحديثة لا يكفى، بل لابد من اخضاعها للتجربة والاختبار ، مع الاهتمام بالخصوصية ومن هنا كان التثقيف الذاتى الذى نطالب به المفتش والمعلم معا ، يستلزم أن يكون مصحوبا بالتطبيق والبحث لاكتشاف أقوم الطرق وانسبها فى تعليم الطفل المغربى .

وكمثال على ذلك نشير الى مادتي اللغة والحساب اللتين أصبح تعليمهما يتطلب الان مراجعة كاملة للطرق والاساليب المتبعة . ان تقدم علم اللغة والصياغة الجديدة للرياضيات ، يفرضان اليوم ، على رجل التعليم ، مراجعة بضاعته واعادة بنائها ، واصطناع اساليب جديدة فى البحث والتعليم .

واذا كانت اللغة العربية لم تخضع لحد الان للدراسة والبحث

العلميين استنادا الى مكتشفات علم اللغة الجديد ، فهناك ميادين كثيرة للبحث ، يستطيع المعلم والمفتش بما دراستها والتجريب فيها . من ذلك مثلا اننا هنا فى المغرب ننفرد بطريقة خاصة فى تعليم اللغة العربية ، وهى تدريب الاطفال على شكل الجمل والقطع . ان دروس الشكل تأخذ حصة الاسد من دروس اللغة والنحو ، خاصة فى المتوسط الاول والثانى والاقسام الثانوية . ولكن هل فكرنا يوما فى جدوى هذه الطريقة ، هل درسنا نتائجها ؟ هل اخضعناها للبحث والتجربة ؟ اليست هذه الطريقة موغلة فى الشكلية ، مناقضة لخصائص اللغة العربية وقوانين نمو عقل الطفل ؟ .

نعم يراد لشكل القطعة ان يكون تطبيقا عمليا لقواعد النحو .. ولكن هل يستطيع الطفل الذى لا يجيد اللغة العربية ، تطبيق هذه القواعد وهى قواعد منطقية اساسا ؟ الا يتوقف الشكل الصحيح على الفهم الصحيح لمعانى الجمل والقطعة ؟ ان النحو العربى نحو منطقى . فيجب أن نفهم النص حتى نستطيع قراءته (أى شكله) قراءة صحيحة نحويا . يجب أن نعرف مسبقا الفاعل من المفعول به حتى نرفع الاول وننصب الثانى . ان النحو العربى لا يساعد على الفهم ، بل الفهم شرط ضرورى لسلامة النطق ، وهذا على خلاف قواعد اللغة فى اللغات الاجنبية الحديثة ، كالفرنسية مثلا ، وهى قواعد تساعد على تجنب الخطأ فى الكتابة وتعمل على تيسير الفهـــم .

والادهى من ذلك كله ، هو ان النصوص التى نطالب التلميذ بشكلها هى فى الغالب نصوص صعبة معقدة : بعضها يوضع كالالغاز وبعضها الاخر يقتبس من كتاب العصور الماضية . فكيف يعقل أن نطلب من الطفل الصغير ، الذى يتكلم الدارجة فى المنزل والشارع ، أن يشكل هذه النصوص ، وهو لا يفهم كلماتها ولا يعرف طريقة تركيب جملها التى كثيرا ما تخضع لاعتبارات بلاغية ؟ هذا فضلا عن جهله التام لمعانى النص وظروفه وسياقه ؟ .

يجب اذن أن نعيد النظر فى الاسلوب الذى نتبعه فى تعليم اللغة العربية . ان العناية بدراسة النصوص وفهمها ، والتمود عليها ، وعلى التراكيب العربية البسيطة السهلة ، انسب فى نظرى لتعليم الصغار . أما دروس النحو فيجب أن تختزل وتبسط الى أقصى حد مع تجنب دراستها

لذاتها .. والا كان من « الاحسن » دراسة النحو على طريقة الفية ابن مالك ، فهى أجدى فى هذا المجال ، مجال دراسة النحو لذاته ، دراسة شكلية صـــرفـــة .

والى جانب مـــادة القواعد والشكل ، تطرح مـــادة الحســـاب مسعويات مماثلة ، ولكنها من نوع آخر . كلنا نعرف ان تدريس الحساب يبدأ عندنا بالعربية فى التحضيرى والابتدائـــى الاول ، ليدرس باللغـــة الفرنسية فى الاقسام التالية . انه تدبير لا يبرره لا المنطق ولا السيكولوجيا، وانما هى « ضرورة » فرضتها سياسة تعليمية غير متزنة ، سياسة تقوم على التلفيق والتوفيق حتى ولو كان ذلك على حساب المنطق وسيكولوجية الطفل وجميع المبادىء التربوية المعروفة . والحـــل يتطلـــب الاختيـــار الواضح : اما البدء فى تعليم الفرنسية كلغة ابتداء من التحضيرى وبالتالى تعليم الحساب من البداية بهذه اللغة ، واما تعريب الحســـاب فى جميع الفصول مع ما يتطلب ذلك من اعداد للاطر للمرحلة الثانوية .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى شرعنا منذ سنوات فى تدريـــس الحساب على اساس نظرية المجموعات . لقـــد صيغت الرياضيات فى العقود الاخيرة صياغة منطقية اكسيوماتية ، فاصبحت اســـسها وهياكلها مبنية على المنطق . ونحن الذين بادرنا الى تدريس الرياضيات فى شكلها الجديد هذا ، فى أشد الحاجة الى اعادة تكوين المعلمين والاساتذة ، تكوينا رياضيا منطقيا فى آن واحد ، حتى يستوعبوا الشكل الجديد الذى صيغت به مادتهم ، ويتمكنوا بالتالى من تدريسها بنجاح ، خصوصا وقد تبين من النتائج التى توصل اليها علماء نفس الطفـــل ، أن هـــذه الطريقة هى انسب للاطفال وأكثر اتساقا مع قواهم العقلية . واذا كان من غير الممكن أن يكون المعلم والاستاذ فى الثـــانوى ، متخصصـــا فى الرياضيات والمنطق والسيكولوجية الطفلية ، فانه مـــن الواجب علـــى المفتش ، وهو المكلف بالتاطير والمراقبة التربوية أن يكون على اطـــلاع كاف بهذه الميادين حتى يصدر فى ارشاده وتوجيهه للمعلم والاستاذ عن فهم لحقائق الامور ، وبصيرة بكلياتها وتفاصيلها .

نعم اننا لا نطلب منكم أن تكونوا فلاسفة رياضيين ، ولا مناطقة مختصين ، ولا علماء مبرزين فى سيكولوجية الطفل ولكن هناك حد أدنى

لابد منه ، وأكثر من ذلك لابد من تتبع التطورات الكثيرة والغنية التي تشهدها هذه الفروع من المعرفة ، والا بقي التدريس عندنا شكليا عتيقا، وبقي تعليمنا تعليما متخلفا عشوائيا ، قليل المردودية ، ضعيف المستوى.

ان هناك وقتا ثمينا نضيعه لاطفالنا ولانفسنا نتيجة تخلف أساليب تعليمنا . وما ذكرناه بخصوص مادتي القواعد والحساب ينطبق بكيفية اوسع على المواد الاخرى التي نعتمد فيها ، كذلك ، التلقين والحفظ . ماذا سيستفيد الطفل الصغير من دروس في الفقه هي اقرب الى الاختصاص ، ماذا سيستفيده منها سواء في حياته المادية او حياته الروحية ؟ انها كلمات وتراكيب يحفظها مكرها لينساها بعد ساعة او ساعتين ؟ ان تعليمنا في هذا المجال اكثر شكلية ، وابعد عن مراعاة قدرات الطفل ، من التعليم الذي عرفناه في القرون الوسطى والذي ظل قائما الى وقت قريب . لم يكن الاطفال الصغار آنذاك يدرسون السنن والمستحبات والمكروهات ، لم يكونوا يسمعون عن شيء اسمه « المسح على الجبائر والخفين » . انها موضوعات كانت متروكة للمرحلة العليا، المرحلة الجامعية . فلماذا نصر نحن اليوم على اثقال فكر الطفل بهذه الدروس التخصصية .

وما قيل عن دروس الفقه والتوحيد يمكن قوله أيضا عن دروس التربية الوطنية : ماذا سيستفيد الطفل المسكين من هذه الدروس التي تطلب منه أن يحفظ عن ظهر قلب اقسام وهياكل الجهاز الاداري ومختلف الوزارات ؟ لابد من اعادة النظر في دروس التربية الدينية والتربية الوطنية ، لابد من تحديثها مادة واسلوبا ، مضمونا وشكلا ، حتى تؤدي النتائج المتوخاة منها ، والا ظلت ، كما هي عليه اليوم ، مضيعة للوقت وبقيت حصصها من أثقل الحصص على المعلم والتلميذ سواء بسواء .

واذا انتقلنا الان الى كتب القراءة والتلاوة نجد العجب العجاب : كلمات غريبة ، وتراكيب ركيكة مصطنعة وموضوعات أكل عليها الدهر وشرب . جل النصوص التي تتخذها الكتب المدرسية الحالية مادة لتعليم القراءة والتعرف على الاساليب العربية ، نصوص بعضها مصطنع هجين، وبعضها عتيق غريب . انها نصوص لا تمت بصلة الى حياة العصر التي يحياها الطفل ، ولا الى اهتماماته ومشاغله ، انها تحكي جوانب من حياة العصور الماضية ، اما مباشرة ، واما بالرمز على لسان الدواب

والحيوان ، هذا فى عصر يزخر بالمخترعات الحديثة ، بالاليات والتقنيات التى تدخل كل بيت ، ولا يجد الطفل عنها فى كتبه أو دفاتره اية اشارة. فلا زالت الموضوعات المحببة الى كثير من المعلمين والمؤلفين موضوعات قديمة ميتة ، فى القراءة والتلاوة والانشاء . ان الطفل يحيا فى عصر الصواريخ والاقمار الصناعية ، ولكن الموضوعات التى يقرؤها أو التى يطلب منه الكتابة فيها لا زالت من نوع « معركة بين تطين » ، « حوار بين الجمل والنملة » ، « القط والفار » .. الى غير ذلك من الموضوعات التى اصبحت اليوم سخيفة .

* * *

حاصل الكلام ان تعليمنا الحالى تقليدى كله ، شكلى كله ، سواء فى المضمون أو فى الطريقة . والاسلوب . والتجديد الذى نرغب فيه جميعا، والاصلاح الذى نطالب به جميعا ، لا يمكن أن ينزل من السماء ، بل لا بد من العمل والبحث. لن يكون هناك تجديد مطلقا ما لم يبدأ المعلمون والمراقبون التربويون بوضع اعمالهم موضع النقد، ما لم يعملوا باستمرار على تجديد معلوماتهم وطريقة ممارستهم للمهنة . ان عليهم ان يخوضوا معارك ضد انفسهم ، ضد كل ما هو عتيق ومتخلف فى تفكيرهم واسلوب عملهم . لقد اصبحت الثقافة اليوم ، حتى المتخصصة منها ، فى متناول الجميع، فعليهم جميعا أن يغترفوا منها ، لان التجديد الفكرى والثقافى الذى نتوق اليه لن يتحقق الا اذا ابتدأ من المدرسة .

على أن هذا وحده لا يكفى ، بل لابد من الانفتاح على مختلف ميادين الحياة ، والاهتمام بالمشاكل اليومية التى يعانى منها مجتمعنا ، فى البيت والشارع ، والمعمل ، والمصنع ، والمدرسة . ان المشاكل كلها مترابطة ، وحل هذه يتوقف فى الغالب على حل تلك . ولهذا كان التقوقع فى المهنة ودروبها خطأ قاتلا .

ان بلادنا ، مثلها مثل سائر البلدان المتخلفة التى عانت من الاستعمار، وتعانى من مخلفاته ورواسبه ومؤامراته، تجد نفسها اليوم امام خضم من المشاكل التعليمية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ولن يكون رجل التعليم واعيا لوضعيته ، قادرا على أداء رسالته ، ما لم يكن مهتما بهذه المشاكل كلها ، متتبعا لتطوراتها ، باحثا عن أصولها

واسبابها ، مساهما فى العمل من أجل القضاء عليها . ان رجال التعليم فى البلدان المتخلفة ليسوا معلمى صبيان ، بل ان مهمتهم فى الحقيقة أوسع من ذلك واعمق . انهم الاداة التى لا يمكن أن يتحقق التغيير بدون مساهمتها الفعالة والمتواصلة . فيجب ، اذن ، أن يكونوا على وعى بوضعيتهم ، وعلى بينة من الواقع الذى يعيشون فيه ، ويرزحون تحت وطاته .. ان التربية كل لا يتجزأ .. ان تربية الصغار فى المدرسة ستكون ناقصة معرضة للتخلف والضياع ، ما لم تكن مصحوبة بتربية الكبار ، ثقافيا واجتماعيا وسياسيا ، فلتكونوا اذن مصابيح وهاجة يخترق نورها جميع الحواجز ، وينساب من كل جهة لينير الدروب .. دروب الحياة ، دروب المستقبل .